

العناية بالطريق

قصة جديدة

بمعلم زينه حوري

رفق وتؤدة ريثاً تكون اعضاءه قد لانت وطاعت ، وريثاً يكون دمه قد توزع في بدنه التوزع الطبيعي ، لأن معظمه كان قد احتشد في عروق اذنيه وانصب على دماغه . فلما انحدر الى اسفل الدرج وواجه الباب المفتوح على الشارع ، اتسع منخراه اذ عب الهواء عباً عميقاً . وجس صدغيه بأصبعين من اصابعه فوجد لها ثقفاً سريعاً . ثم مر بكفه على جبهته يريد ان يمسخ عنها ما علق بها من التجاعيد في نهاره .

ومشى الى البحر يرفه عن نفسه المكدودة ، ويستلهم الشعر (انه لم ينس الشعر بعد !) فرجع الى بيته وهو موفن ان دماغاً عصرته الارقام لا يدر شعراً ، ودار في خاطره ان فتاة الجيران عليها ان تنتظر مدة قيل ان تسمع منه قصيدته فيها .

— كيف كان الشغل اليوم ؟ سألته عمته ، وكانت اجسر اهل البيت على سؤاله عن كل صغير وكبير من شؤونه . وكان هو صريحاً معها ، يستكين اليها ويطمئن ، ويعابثها كثيراً ويلبس فيها طيبة البقرة وسداجتها ، ويعجب للشبه القوي بينها وبين البقرة في ضخامة رأسها وبخلقة عينها . انتظرت منه ان يجلس اليها ، ان يجاذبها جبل الحديد الطويل كعادته ، ولكنه اكتفى بان اجابها : « ماشي الحال » . ورجا منها ان تتركه ليستريح قبل العشاء . فرافقته بمينين دهشتين مستفهمتين ، وهو يمر امامها ، كما تنتظر البقرة الى صاحبها حين يجتاز لا يسقيها ولا يلقي لها شيئاً من علف ، ولا يمد حتى يده يحك ما تحت ذقنها .

ودخلت عليه عمته بعد قليل ، فرأت ذراعيه مفتوحتين على مداهما وشعره الاسود مسبلاً على الخدود البيضاء وكتابه مطروحاً على صدره فوجت لحظة تتأمل قسائمه على شعاع المصباح . ثم رفعت الكتاب في حذر واطفأت الضوء وخرجت على اطراف اصابعها موسوسة مغمومة .

★

تعاقت الاشهر وفائق في كل يوم (عدا الاحد الذي سماه يوم الهدنة) يسرع في الساعة الثامنة صباحاً او قبلها بقليل تفادياً من غضب المدير ، فلا يخرج في غير ميعاد الغداء مقدار ساعة ونصف الساعة يبلع فيها لغات تحدث له سوء هضم اكثر من المنمة والتغذية ، ثم لا يفرغ إلا الساعة الرابعة او بعدها من عمله الذي اصبح يسميه حرباً مع الارقام لا هدنة فيها الا هدنة الاحد التي يفسدها هم الاثنين .

ارقام ، ارقام ، محتشدة عليه كحب رمال الصحراء ، ليست تمنى له البتة شيئاً سوى ان عليه ان يجهمها او يطرحها او يضرها او يقسمها بجرمة آلية مطردة . وايام تتلاحق ، شمس تغيب واخرى تبرز ، على وتيرة ، وما من جديد او لذيذ . بلى ، في نهاية كل ثلاثين يوماً كان يتسلم غلاماً فيه ثلاثون ليرة

كان ذلك منذ عشرين سنة على التقريب . وكان هذا أول يوم من ايامه في شركة البترول أو الشركة ، باختصار ، كما يدعوها الناس جميعاً .

« اخرج من هذا الوكر : المدرسة . لقد نبت ريشك فطر في فضاء هذا العالم ، واختبر قوة جناحيك » . هكذا قالت له يومئذ اسرته . فطلق الدراسة ورغبته فيها ملحة ، وذكاؤه عطش ، ليشغل وظيفة في الشركة بثلاثين ليرة لبنانية سورية في ذلك الحين . وقد سلمه مديره في الصباح دفترأ ضخماً سنياً ، ملؤه الارقام ، وشرح له ما عليه ان يصنع به ، فاذا وظيفته حاسب من حاسي الشركة .

تكدر فائق ولكنه ارسب كدره الى قرارة نفسه . ارقام ! حسابات ! ما له وللحسابات والارقام ؟ انه يحب الشعر ، بل هو شاعر قوي الخيال ، وثابه ، تدغدغ ذهنه الصور الحسان ، وان كان لا يزال مقصراً عن جلوها في الثوب الذي يليق بها من اللفظ والوزن . ان قلبه ليتفتح ابتهاجاً حين تبسم له فتاة الجيران كما يتفتح الزهر ، مثلاً ، تحت ندى الاسحار . لقد لمحها مرة في فستان ليلكي ، وراء زجاج النافذة وهي مرسة الشعر . فاشتبهى ان يغنيها قصيدة ، ان يقول لها : « ان وجهك لكالقمح ، وشعرك كخيوط نسك من الليل ، وأما فستانك فقصوص من قاشة الفلك الازرق . وافيني الى الغسابة قبيل الغروب ، حين تمعد الشمس أشعتها كأشرطة الحرير الناعمة ، بغصون الاشجار . لاقيني فتعمد هناك ، حتى تنمس الزهور البرية على قدميك متتابة عن عطورها ... » انتهى ان يقول لها ذلك في شعره ، إلا ان الوزن لم يطاوعه واللفظ لم يؤاثره . فهو غارق الفكر يكويه هذا العذاب الذي يكوي الفنان اذا عصاه التعبير عما في دخيلة روحه — اذا اعياه اطلاق الجري للفيض السخي الذي ينبع من غور نفسه .

كم كان فائق يتوق ان يظل طابقاً غير مقيد ، ياق له الشعر حتى يرق له ويفدق عليه .

ولكن ها هو الآن في مكتب الشركة ، مكباً على الدفتر الضخم امامه ، يكاد يمسه ورقه أرنية انفه ، والارقام تهتز في مواضعها امام نظره المتعب ، وترحف وتراقص ... ارقام لا تحصى ، متراكبة كحلقات السلسلة ، كأسنان العمود الفقري في افعى ، او كالكراديس المتراصة من نعال تدخل وتخرج من اوكارها . والقلم في يده قد كل من الديق على القرطاس ، ودماغه قد خدر من هذا التوليد العقيم للارقام بعضها من بعض جمماً وطرحاً وضرباً وقسماً!

« ان الآلة من جاد لتستطيع وحدها ان لا تسأم هذه الارقام النهار بطوله . وأرى دماغي سيتحول في قريب الى آلة . »

ولم يكده نهار العمل ينتهي ، حتى اندفع فائق من مقعده وهبط الدرج بقامته النحيلة في

قصة الشهر

لبنانية سورية، ثلاثون ليرة دفع عوضها من حدة دماغه وبذل من نور عينيه. « ان الحياة على هذا المنوال لا طعم لها » قال له احد اصحابه : « يجب ان تدخن . دخن . هذا يساعد اعصابك . ولا بأس بكأس في السهرة نحي به نشاطك . »

وهكذا اصبح فائق اذا اكب على دفتره علت سحائب من لعائف التبغ ظللت رأسه طول النهار . فاذا خرج من عمله توجه تواراً الى احدى الحمامات فتناول كأساً او كأسين حاول عيماً ان يفرق بها تعب النهار .

في صباح يوم اسرع فائق الى مكتب الشركة ، ولا علم له بما ينتظره من مفاجأة . ولو كان له بها علم لطار فرحاً لأنه لا يتوق الى امنية كما يتوق الى فراق هذا الدفتري المحشو ارقاماً والذي يكاد يتقياً الارقام بين يديه .

قال له مديره لما جاوز عتبة المكتب :

— تذهب اليوم الى المستودعات فتسلم عملاء الشركة البنزين والزيوت والسكر ، وتفيد ما يتسلمه كل عميل . وسيكون شغلك هناك وقتياً على الاقل ، لأن صاحب الوظيفة قد طرد منها . وهناك حاملون ينقلون صفائح البترول على ظهورهم في صناديق خشبية من المستودعات الى الطريق العام حيث يتسلم العملاء بضائهم ، فبعد بديعة عدد الصناديق التي ينقلها كل حال ... وكن اميناً .

لماذا قل له المدير : وكن اميناً ؟ انراه يرتاب في امانته ؟

مشى فائق الى مستودعات الشركة ولم تكن بعيدة جداً — في ضاحية من بيروت على الشاطيء صوب الجبل . والحيرة مستولية عليه من جراء الكلمة التي ختم بها مديره حديثه معه... رأى سوراً سميكاً من الاسمنت يحيط بمكان المستودعات ، وأبنية وبراميل حديدية جبارة . ورأى باباً من الاسلاك التخينة المشبكة مفتوحاً على مصراعيه ، قد صف امامه عدد عظيم من سيارات الشحن والطناير . فوج فيه ، ليستقبل رائحة حادة من البترول تخلط اجزاء الهواء . ولقي على الطريق القصير الذي يؤدي من المستودعات الى الطريق العام ، صفاً من الجمالين في خرق بالية ، وجالهم على اكتاف شبه عارية ، ينتظرون . فكل من كان قاعداً منهم وقف له وقوفاً فوراً آلياً كأنما بكبسة زر . ثم تبعه الجميع على الاثر صامتين ولا صمت الساعين الى مدفن . ثم لقي حراس المستودعات فدفع اليه رئيسهم بالمفاتيح . والنف عليه معاوانوه والعشرات من عملاء الشركة الذين بكروا يترقبون قدومه .

بعد ربع ساعة، نشطت حركة العمل في المستودعات آخذة مجراها المعتاد. في اليوم الاول لم يلحظ فائق شيئاً . على انه كان لا يزال يفكر في تلك الكلمة من مديره. فلما انصرف آخر النهار خطر له خاطر جديد ، وهو ان المخلوق الذي شغل الوظيفة قبله كان متبها في امانته .

في اليوم التالي ، لحظ فائق ان معاوانيه كثير و التبريل له — « أمرك يا افندي » ، « كما تريد يا بك » . فوقع في دهشة وامتناع . أترامهم يتهمون به ، أم ان وراء الامر سرّاً ؟

— يا فائق افندي !

— نعم !

كان الذي يخاطبه واحداً من معاوانيه ، فتى مشوش الهندام قليلاً ، لكنه غير رث الثياب ، قد طوق عنقه بربطة حمراء معقودة في غير مبالاة ، وقد فاحت منه رائحة حادة من سائل عطري رخيص . تقدم من فائق وقد وقف هذا الاخير ويده دفتري وقلم رصاص .

— يا فائق افندي ، دخن سيكاره . ولكن تعال نبتعد قليلاً كي لا نحدث حريقة قبل ان نتفاهم .

— «شكراً...» وأخذ منه اللقافة ، ومشيا مسافة . ثم اشعل فائق لفاقته من قداحة المعاوان وارسل بصره على فساحة البحر . ووقف المعاوان بجانبه وقد اشعل هو ايضا سيكاره وقال له :

— أتري الى هؤلاء الجمالين مقوسة ظهورهم ، محنية رقابهم تحت الصناديق الخشبية ؟ مساكين ، يا للظلم القهار .

كان فائق يشمئز من الجمالين . يأنف من ثيابهم الخرق الممسحة . ومن الروائح التي تبعث منهم ومن ابدانهم . وكان يشور حين يسمع لغتهم الفظة وشتائمهم الوفحة ، فقال للمعاوان :

وما يعنك منهم ؟

— الشركة تدوسهم بنعل من حديد . وامرهم يعنيني ، ويعنيك كذلك ما دمت انساناً ، ولا سيما انساناً مثقفاً وشاعراً يحس آلام البشرية .

فأراد فائق ان يضحك لهذه التبرة الخطابية ، والروعة البيانية الملتزمة . لكنه اكتفى بابتسامة حامت حول شفطيه .

— لا تضحك يا فائق افندي . الشركة تدوسهم بنعل من حديد ، وتدوسنا معهم . تستخدمهم وتستخدمنا بفتات المائدة . كم معاشك ؟ ثلاثون او خمس وثلاثون ليرة في الشهر ؟ أليس هو ذلك ؟ ومعاوانتي عشرون . فانظر كم معاشات الموظفين الاجانب . ثم فكر كم ملايين تقص بها كل سنة خزائن الشركة ربحاً صافياً لها .

— لست افهم قصدك ، اجابه فائق وقد لمعت في عينيه نقطة تنبه واهتمام .

— قصدي ان اقول لك انك مغشوش .

— مغشوش ؟ ولم ؟

— اجل مغشوش . اتظن الشركة تستحق منك كل هذه الدقة والامانة . فانت ابدأ واقف بالمرصاد ، لا تستقر عينك في رأسك لشدة ما ترفب كل حركة في المستودعات ، ولا يستريح القلم في يمينك لشدة ما تقيد كل شاردة وواردة . أفحرام ان كسبت زيادة فوق معاشك الزهيد وتركتنا وتركت الجمالين يكسبون ؟

انسمت عينا فائق من الدهشة ، وحدق ملياً وعميقاً في عيني مخاطبه .

— لا تستنكر قولي . ان صاحب هذه الوظيفة قبلك قد خرج بالوف الليرات ربحاً خالصاً له . ولم يكتشفوه إلا بعد سنة ونصف السنة . ثم لمبا اكتشفوه ماداً فعلوا به ؟ قالوا له : اذهب ، فانك معزول . فأدار لهم قفاه

« وكلاء الآداب »

سوريا ولبنان : شركة فرج الله المطبوعات

العراق : وكالة فرج الله المطبوعات : محمود حلمي .

البحرين : المكتبة الوطنية لصاحبها ابراهيم محمد عبيد

الكويت : مكتبة الطلبة لصاحبها عبد الرحمن الخرجي

تونس : دار الكتب العربية الشرقية لصاحبها محمد خوجه

طنجة : مكتب الصحاب .

ليديا : المكتبة الوطنية — بنغازي .

مصر : دار الكشاف ٣٧ شارع عبدالعزيز بالقاهرة

باريس : المكتبة الشرقية

15 Rue Monsieur - le - Prince — Paris

وذهب غافاً سالماً .

اراد فائق ان يقول للمعاون : لماذا لا تكون اكثر صراحة ؟ كيف استطاع ان يربح تلك الالوف كما تذكر ؟ ولكنه خشي ان يظنه المعاون قد رضي عن كلامه ، فلبث صامتا مزموماً الشفتين ، فاستمر المعاون يقول - هذه البراميل الحديدية الضخمة ، من يدري اذا اخرجنا من كل منها مائة صفيحة ، مثلاً ، فبناها للعلاء بسمر ادنى ؟ هذه الصناديق الخشبية المملوءة صفائح ، من يدري لو اخذنا منها خمسين صندوقاً حيناً في عوضها بنمسين فيها صفائح فارغة ، وقلنا : انها تثقب وسال ما فيها على الارض ... من يعلم لو دبرنا يوماً تهريب نصف مستودع بكامله ، واضرنا في بقيته النار ، ثم هرعنا نصيح : النجدة ، النجدة ، بعد ان توشك النار ان تأتي عليه برمتة؟ فصعد الدم الى وجهه فائق ، واحتقن واحمر ...

هذه سرقة !

- الشركة تسرق ! وهز المعاون كتفيه وتحول عنه كالذي يهجم بالانصراف وهو يقول له : شأذك . غير انه ما لبث ان انقلبت نحوه ثانية وأعاد عليه الكرة : الشركة تسرق ... ثم بعد هنيهة من اطراق ، اردف يقول ، بصوت كالمس ، تأكيداً لأهمية ما يقول : ولكن الشركة تسرق طمعاً في المال ، وفي إفقار العباد لأجل استبدامهم . أما نحن فاذا سرقنا ، ففي سبيل لقمة نأكلها ، بل في سبيل حق إسمي وغاية انبل ! هل تسمعي يا فائق افندي؟ وهنا زاد المعاون في تخفيض صوته زيادة في التأكيد لأهمية ما يقول : ان سرقنا للشركة ضرب من التار من هذه المؤسسة الاستثنائية الممتصة لدم البشرية . فعملنا هو العدل بعينه ، من الناحية المبدئية ، فضلاً عن انه تخريب للشركة يؤول من الناحية الفعلية الى ازالة عقبة تعترض تقدم البشرية . وان البشرية لتتقدم بخطى فسيحة ، ولها في هذا التقدم ركب صاعد وطبيعة واعية جبارة ، على انها تحتاج بالطبع الى مؤازرة مني ومنك . ولا اكتمك ان قسماً من هذا الذي سنسرقه من الشركة سينتهي الى مؤازرة تلك الطبيعة الواعية الجبارة التي ذكرتها لك ، والتي ارجو - اذا قبلت - ان اجعلك بمثل لها يهرك ويملاؤ نفسك حماسة وإيماناً واقتناعاً بالند القريب المشيد على الحرية والعدالة والسلام والسعادة ، وما شئت من امانتي مقدسة بقيت مجرد احلام حتى حان موعد تحقيقها في هذا العصر على يد ذلك الركب الصاعد وتلك الطبيعة الواعية التي سأجملك باحد ممثلها .

ومسح المعاون بكفه على ربطته الحمراء ، وانصرف يهجم في الهواء آخر رشقة من دخان عبها من سيكارتة التي احترقت فرمى عقبها وسحقه بقدمه . أما فائق فبقي كالسمر في مكانه ، وقد تراكم الرماد على اللقافة في يده حتى طفئت . إلا انه لم يلبث ان صحا حين ذهوله حين طرق سمعه صدى هذه الكلمات : - أهلاً بمصلح البشرية ! وكانت هي كلمات وجهها معاون آخر الى المعاون صاحب الربطة الحمراء .

★

ومنذ ذلك اليوم تبدل فائق تبدلاً عميقاً ، انقلب انقلاباً ، اصبح الذي يقع عليه بصره يقرأ في ملامح وجهه انه مشغول ابداً منهمك مأخوذ بصراع ناشب في دجلة نفسه . وهو يجتهد في ان يصاب نفسه كالخشب ، فلا تتأثر بما ينتابها من الصراع ، ولكن الصراع كان في باطنها كالسوسة تتأكل الخشب . أياليه على سرقة الشركة ام لا ؟ مرت به ايام وليال وهذا السؤال محفورة حروفه عريضة بارزة في لوح دماغه ، وقد ختمت بملامة استفهام كبيرة محرقة . أفيمكنه هو الشاعر المترفع العاطفة ان يياليه على السرقة ، أيأ كانت المبررات ؟

ولكن الشركة تسرق . لماذا تسرق الشركة ؟ اصبح فائق لا يشك البتة في هذه الحقيقة : ان الشركة تسرق . كلمة المعاون تلك كانت وخزة نبهته ، ومضة نور فتحت عينيه . ها هو في غرفته قد خلا الى نفسه ، واستلقى على سريره يهجم دخان لقاغة لثر اخرى ، ويراقب سحب الدخان يشردها النسيم المنبعث من النافذة فلا يأذن لها بالانقصاد في جو الغرفة . صورة واحدة تلح عليه ويلتمس دفماً عنه بمراقبة ذلك الدخان يتصاعد وينتشر ويتبدد فوقه . على انه يخفق في دفع تلك الصورة ، وهي صورة الانابيب الطوال تمتد وتتلوى كالكعابين في احشاء ارض العرب . في مكان تراها تقتص جشمة نهمة ... تتمصن الدم من عروق الارض العربية ، ذلك الدم القاتم الذي سموه الذهب الاسود . وفي مكان آخر هي تقبته متمخمة من اجوافها فيجمله فراغنة المساء على الامواج الى بلادهم .

دم ارضنا ، البترول ، علام يفصوننا اياه ؟ بلائمن يأخذونه إلا تلك الحصص الهزيلة التي لا تساوي من الجمل اذنه ، كما يقال ، والتي يستولي عليها ملوك وامراء ووزراء ينفقونها نصب الشيطان على سيارة يقتنونها لفخفة فارغة ، او على شاعر يكذبهم ويكذب الفن ويكذب الله ، او على محظية يطرزون حذاءها الحملي بذهب يطعم يتيماً طول عام ، او يعين معلم مدرسة على تجديد بذلته قبل اربعة اعوام . دم ارضنا البترول ، علام يفصوننا اياه بلائمن ، ثم يعيدونه لنا باهظ الاثمان ، ولا سبيل لنا الا ان ندفع ، ندفع والرزق رزقنا . ألا إنما نحن العيس التي حكى عنها شاعرنا ، يقتلها الظلماء في البيداء والماء فوق ظهورها محمول !

الشركة تسرق . الآن صار لتلك الارقام المتكدسة التي اشتغل بجمعها رطرحها وضربها وقسمتها ، معنى في نفسه . الشركة تسرق ... لكن قبل ان يتخذ قراراً ، علام لا يلي دعوة معاونه ، مصلح البشرية ، (لقد استطرف هذا اللقب) فيجتمع بمثل ذلك الركب الصاعد ، او تلك الطبيعة الواعية الجبارة التي سمع عنها من مصلح البشرية ما يقطع الحيرة وينفي اليأس ويوقد نبراس الأمل في النفس . وإذا بفائق بعد يومين يوافق على سرقة الشركة ، ويفض النظر عن معاونه فيدير الامر .

غير ان الشركة كانت الآن ساهرة العيون . السارق لا تسهل سرقة مرة بعد مرة . شم رجال الشركة رائحة ما يطبخ لهم في السر ، فاستدعي فائق ومعاونته للاستنطاق ، فأنكر المعاون ان يكون له ايسر ضلع في السرقة ، في هذا الفعل الخسيس . وكيف يشترك في السرقة ، وهو المعروف ببيادته الشريفة التي تهدف الى تحقيق العدالة والحرية والسلام والسعادة للبشرية . فأما فائق فهم بان يقول : ان سرقة الشركة حلال لأنها هي تسرق . إلا انه في اخر لحظة لجم لسانه وآثر الصمت . ففصل من وظيفته !

★

قالت له عمته في تلك الليلة : انك مغموم جداً يا فائق . لا بد ان يكون حدث امر ، فاصدقني الخبر . والحق ان فائق كان يشعر بثقل عظيم من الغم يسحق نفسه . ذلك انه صدم بخيبة شديدة مرة من جراء هذا التصريح الذي فاه به معاونه لدى الاستنطاق . فقد كان يعلم حق العلم ان معاونه يكذب ، وانه يستحل سرقة الشركة باسم هذه العدالة والحرية والسلام والسعادة التي زعم لدى الاستنطاق انها جميعاً روادع تردعه عن السرقة . بل هو يذكر اوضح الذكر ان ذلك الممثل الذي اتاح له معاونه ان يجتمع به ، يمثل الركب الصاعد والطلب

الى أين؟ كان فائق قد تعرف الشراب وهو ما يزال في الوظيفة . فوجده منعشاً مرفهاً . فأمل الآن من الشراب ان يفرق افكاره السوداء ، ويجلو تصوراته . أمل منه ان يصرف عنه ذلك الشبح او يذهله عنه بالسكر . فبات ملازماً للخمات لا يخرج من واحدة حتى يعدل الى اخرى، وتوطدت بينه وبين العرق صداقة حميمة . احتجت عمته احتجاجاً صاهتاً بدموعها اول الامر ، ثم احتجاجاً صارخاً بشهقاتها . وعاتبه ابوه برفق ثم أنتهره بعنف . وسعى اكثر من عرفوه ان يحولوا بينه وبين الخدر الذي يسرع فيه ، إلا انه لم يأبه لأحد .

انتحار! انتحار لا بالجلبل ولا الخنجر ولا السم الزعاف ، بل بهذا السائل الذي تسطع رائحته حادة في خياشيمه ، ويبيض باسماء مغرباً عندهما يازجه الماء ، وينسكب في الخلق لاذعاً عنذباً يستعبد صاحبه استعباداً في مقابل ما يهب له من نشوة هي نشوة الانحلال والانجذاب .

مضى فائق شوطاً بعيداً في الخداره . وهو يرى نهاية المنحدر : القبر . والقبر ليس فائق وحده سائراً اليه . قد يصله هو قبل غيره ، ولكن الجميع واصلون لا محالة ان عاجلاً أو آجلاً . وفي اعماق القبر تلك الراحة الابدية التي تاف المتعبين . ولشد ما كان فائق مولعاً بان يجعل لحماقته هذه اسماً رناناً فيقول : هي فلسفتي الخاصة .

على انه كان لا يعدم ساعات من صحو تعترضه فيها المرأة فيطالع وجهه الاصر اللبدي ، وعينه اللتين خبا بريقهما وراان عليهما الغباء ، وأحاط بها اطار اسود علامة العياء والتضضع ، فيدرك انه مشرف على نهاية المنحدر ، وان القبر بعيد عن ان يكون جميلاً كما خيل له . فتدب فيه ارتعاشه رعب . عند هذا الحد يجب ان يقف ! علام يجعل من شبابه موميا مخيفة ؟ لا حق له بعد اليوم ان يخطو خطوة اخرى في المنحدر .

إلا انه بات اشبه بالحيوان السخر ، كلما هم بالوقوف نخسه من ورائه ناخس وصاح به : هيا ... فقد الإرادة ، فاذا شاء ان يسلك عن الانحدر بعد اليوم ، فلا بد من ان يكون بجانبه من يسكه .

ليلة شرب فائق فأسرف في الشرب من هذا السائل الابيض . وقد وحده الى مائدة صغيرة في زاوية من احدى الحمامات الرخيصة التي ألف التردد اليها ، لا يصنع شيئاً إلا اشعال لفافة اثر لفافة من التبغ الرخيف ، وتمزز كأس بعد اخرى ، واطلاق كحة جافة يهتر لها جسمه كأن الارض من تحته تضطرب في زلزال .

بلى ، كان يخرج من جيبه ذلك الرسم الذي يمثل الفتى المتقبض الوجه ، الحامل رأسه بين يديه منكباً على المائدة وفوقه نخال الشبح القائم الغامض . كان يخرج الرسم بين هنيهة واخرى ، فيستغرق في تأمله طويلاً ... واذا به يحس ، وهو يتأمل الرسم للمرة التاسعة او العاشرة يداً تلقى على كتفه وتضغطه شيئاً . فاقشعر وتلفت بحركة عصبية ، يتوقع ان يرى الشبح القائم الغامض قد ظهر فوقه حقاً . غير انه رأى ربطة حمراء ووجه « مصلح البشرية » . فحول عنه وجهه لا يريد ان يكلمه . الا انه ما لبث ان سمع مماوانه بالامس يقول له :

— وأي شيء يعجبك في هذا الرسم الكريه ؟

فاجابه فائق وهو يعتصب الكلام اغتصاباً ويرجو ان لا يطول الحديث :

— انه يمثلني حق التمثيل .

— ولكن هذا اعلان عن جوب يداوى بها المعذبون بالأمساك وعسر

الهضم . فهل انت مصاب بطرف من هذه العلة ؟

— ربما !

الواعية ، قد قال له في معرض اقناعه بوجوب سرقة الشركة : « الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة » . وكان يعني بالحكاية تحقيق الرسالة التي زعم انه نذر لها نفسه من تحرير البشرية واسعادها واشاعة السلم والمدالة في حياتها ، فكيف ينقلب الماوان على هذا المنطق الذي كان يعتصم به في الامس ، فيتكلم لدى الاستنطاق بنقيض ما كان يتكلم . وإذاً ، تلك كانت حيلة لاستدراجه ، وهو الفتى الساذج القليل الخبرة ، الى ارتكابه السرقة ! أجل ، تلك كانت خدعة لدفعه باسم المثل العليا التي يقدها ، الى مستنقع وحل يغوص فيه .

وهنا سمع عمته ، ولاج له كأن صوتها قادم من بعيد ، تكرر عاياه القول :

— لا بد ان يكون حدث حادث يا فائق . فاصدقني الخبر .

فرد عليها ، وكلما انه لا تكاد تجاوز شفثيه حتى تتلاشى لضعفها وخفوتها :

— استغفوا عني في الشركة .

— والسبب ؟

فكر بماذا يجيبها . يقول لها انه مالا معاوتيه على سرقة الشركة؟ ستصعقها الدهشة والحيرة اذا ، وسينبغي له ان يشرح لها باي منطق استحل سرقة الشركة ، ولكنها لن تزداد إلا دهشة وخيبة . وعلى كل حال هذا شيء يطول . فقرر ان يقول لها واذا نه محمرتان كمن حرته الحمى : لا ادري ، لا ادري !

فصمت ... هل صدقته عندما زعم لها ذلك ؟ لم يطمئن فائق الى ان عمته صدقته ، على سذاجتها . ولكنها تخاشت ان يبدر منها ما قد يجرح احساسه ، او يزيد في المه وانكساره . بل لقد اندفعت تعابته وتطيب خاطره ، وتطلق بالضحك فيحمر وجهها السمين وتختقن عروق رقبتها ويملو صدرها ويهبط مع امواج الضحك . فتسلى فائق بعض الشيء . وحين ترك عمته ومضى يلتمس النوم ، قال في سره : ان المخلوقات الطيبة امثال عمتي لتساعدنا حقاً على احتمال الحياة .

لم يكن فائق بحاجة ماسة الى المال . كان ابوه صاحب حانوت صغير يرد على العائلة ما تستطيع به مع حسن التدبير ان تسوي امورها . لكن برغم ذلك لم يكدر اسبوع حتى بات فائق يحس البطالة كأنها حجر رحي عُلق في عنقه . ان الذين يزعمون ان الانسان بطبعته يؤثر الكسل ، وبالتالي البطالة ، لكذابون او وهمون . ان الذين يدعون ان الانسان لا يسعى مجتهداً إلا وهو مسوق بمجاجة المادية لجهلاء او أفاكون . فالانسان يحب للعمل لأنه سبيل تعبير وافصاح عن الطاقة المخزونة فيه ، عن قوة الخلق والابداع الكامنة في استطاعته . وهو يكره البطالة لأنها تعطل فيه طاقته ، وقوته الخالقة المبدعة . والانسان ابن المجتمع يشعر ان مجتمعه كافر بجمه اذا حرمه العمل . يشعر انه منبوذ لا يرى فيه الناس كفاءة ما يمكن الانتفاع بها . أجل ، يشعر حقاً بما تشعر به قشرة بصل يقذف بها من شباك المطبخ ، لو كانت هذه تشعر !

كان لدى فائق نحو من مائة ليرة لبنانية سورية عندما فصل من وظيفته ، فأعانتته على الفرار من الافكار السوداء التي اخذت تعشش في زوايا نفسه مع امتداد البطالة كما تمشش العناكب في السقوف المهملة . وأي افكار سوداء طفتت تملأ نفس فائق الشاعر ؟ وأي تصورات كالحة اغرقت فيها مخيلته الحادة؟ رأى يوماً رسماً في مجلة عند احد اصدقائه ، تمثل فتى نحيفاً تتقبض ملامح وجهه وينفض جبينه بنوبة من ألم ناهش ، وقد حمل الفتى رأسه بين يديه منكباً فوق مائدة ، ومن وراء كتفيه شبح ، شبح قائم مبهم لم تتوضح منه الا كف بأصابع مهقفة كخبال هبئت للانشاب ! ففسد الرسم في جيبه وقال : هو والله انا ! الشبح ابدأ من ورائي ومن لي بان أفر منه ؟

– بل علتك شيء آخر يا صاحبي . نحن ادري هؤلآه المثقفين الذين تفسد عليهم حياتهم عقدهم النفسية ، ويعملون من كل تفاهة سبباً لأزمة تخبط بها ضماؤهم. هل تجوز السرقة ولو في سبيل قصد شريف ؟ هل تجوز سرقة السارق؟ (كما فعلنا نحن حين سرقتنا الشركة) . هل يجوز الكذب ؟ (كما كذبت انا حين اتصلت من السرقة) وهل ؟ وهل ؟ اسئلة ما تنتهي ، تتأكل نفسك كالمرطبان. اذكر ما قيل لك : « ان الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة». فجأة انتصب فائق وصاح بمعاونه بالأمس : اذهب ، اذهب ، او اقتلك او تقتلني ! وانقذ من عينه شرار شرس .

فأقبل نحوها صاحب الخمارة يريد تدارك الشر . الا ان «مصلح البشرية» اسرع فانكفاً نحو الباب وهو يقول لفائق ، يلتمس استفزازة وتحقيره أمام نفسه :

– ثلاثون ليرة، معاشك الذي خسرت في الشهر، لا يسوى هذه الثورة كلها. وكان صاحب الخمارة قد بلغ الى فائق فقال له :

– لعن الله القمار يا صاحبي ! فأفرغ فائق كأسه دفعة ، وقال لصاحب الخمارة : « كأساً اخرى » ، وهو لا يدري أضحك ام يزداد غيظاً لهذا التفسير الذي فسر به صاحب الخمارة سخطه وثورته .

ثم أحس بالمكان يضيق عليه ضيقاً خائفاً ، ففكر في ان يعقب ليلته زيارة احدى بانئات الاجساد . واستيقظت فيه شهوة ان يشبع خياشيمه من رائحة لحم اثني تفصد عرقاً في ليلة قاتلة .

ولكنه ما لبث ان ذهل عن كل شيء حتى لفاقة التبغ بين اصبعيه ، وكأس العرق امامه ، ورسم الفتى ووراها الشيخ . ومن العجيب ان يكون قد ترك هذا الرسم يسقط ارضاً ، فيدوسه على غير اتباه .. ثم هز برأسه قليلاً ذات اليمين وذات الشمال ، قبل ان اكب على المائدة وغرق في نوم عمقه السكر الى غير ما قرار .

ايقله خادم الخمارة فتلجج لسانه بكلمات لم يفهم منها حرفاً ، فتركه يسترسل في نومه ... هذه الباعة الحادية عشرة والناس قد انصرفوا او هم يهيمون بالانصراف ، وهو ما زال نائماً .

– ماذا اصنع به ؟ قال الخادم لعله صاحب الخمارة . – قش في جيوبه . خذ منه ثمن الكؤوس التي شربها ، ثم اقتده برفق الى الباب أو اجله حلا وضعه على الرصيف . ان له البوليس فلا بأس ، وان تركه ينام هناك فلا بأس ايضاً .

فسمع ذلك شاب كان قد عرج على الحانة منذ لحظة ، يريد ان يربط حلقة غب عمل طويل مرهق امتد حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل . واذا بالشاب يرافق الخادم بيمينه وهو يمشي نحو فائق ، حتى اذا اخذ يهزه هزاً عتيقاً ويدس يده في جيوبه ، نهض اليه فقال له :

– خل عنه ، كم تطلب منه ؟ ... وأدى الشاب الحساب ، ثم طفق يعالج فائق حتى اقامه على رجليه نصف نائم ، وسار به خطوة خطوة .

وصحا فائق في الصباح فاستغرب المكان حوله . فظن على عينه غشاوة ففر كها فركا شديداً . فوجد المكان لا يزال غريباً عليه . وابرص في جانب من الغرفة شاباً ما يزال مغمض العينين . فأخذ يكد ذهنه عساه يذكر شيئاً او لعله يستجلي جانباً من الموقف الذي هو فيه ، فلم يجد الى ذلك سبيلاً ... وفتح الشاب عينيه وحياء تحية الصباح . ثم وثب من فراشه يروض جسمه . فتعجب فائق من عافيته وحيويته . وظن الى انه هو لا يكاد يقدر على الخروج من فراشه ، كأن مفاصله قد فككت ، فينبغي له ان يشد بعضها الى بعض قبل ان يستطيع الحركة . فأوشكت دمة ان تسرح على خده . ثم

اقبل عليه الشاب ، فأخذ يحده ابن صادفه الليلة الماضية، وفي اي حالة وجده ، وكيف اتى به الى غرفته . ولم يذكر له انه كان قد شاهده من قبل في تلك الخمارة ، وراقبه ، فأسس ان حياته تنطوي على مأساة . وتعارف الشابان بالأسماء : فائق ومسمود .

ومنذ اليوم الذي تعارفا فيه شعر فائق ان مسمود هو الذي سيفق بجانبه، فيمسكه عن متابعة انحداره الى درك الهوة السحيقة التي بات مقرراً ان يصير اليها . وعظمت ثقته به ، كما تعظم ثقة الطفل اشقيقه الذي يدر به على المشي دون ان يدفع به للسقوط .

وفي ليلة تحول الحديث بينهما عن مسالكه المطروقة الى شعب لم يدخلها فيها من قبل . وكانت نقطة الابتداء في هذا التحول ان فائق اعلن سخطه على هذه البطالة التي ما زالت ترهقه بثقلها . فقال له مسمود :

– الى ان نبي العدالة الاجتماعية ستظل البطالة ترهق المواطنين ، وبالتالي سيبقى محتاجون لا يجدون ما يميمون به الحياة الكريمة اللائقة ، وسيبقى ممنعون يجدون ما يجاوزون به حدود الحياة الكريمة اللائقة الى البطر والفضح .

فارتست على عجا فائق سحابة من الوجوم حين سمع ذكر العدالة الاجتماعية . ووثب به الذهن الى تلك الحفرة والسلم والسعادة التي سمع حديثها من معاونه بالأمس : مصلح البشرية وصاحب الربطة الحمراء ، وذلك الآخر : ممثل الركب الصاعد والطلبة الواعية الجبارة . واستيقظت في نفسه اصداها ما ذكر له من ان الحكاية لا تتحمل هذا الغرام بالفضيلة، وان سرقة الشركة حلال ، وانه هو مجرد مثقف – يا للتهمة ! – يجعل من الحادثة النائية عقدة نفسية يتخبط فيها الى الابد .

ولحظ مسمود وجومه فقال له :

– اتراني قلت شيئاً ضايقك ؟

فأجاب فائق : عفواً ، ان ذكرك للعدالة الاجتماعية ذكرني اشخاصاً صادفتهم فلم اكن سعيداً بالمصادفة .

– ولماذا لا تزيدني تصريحاً ؟

– كان اولئك يكثر من ذكر العدالة الاجتماعية وغيرها من الالفاظ المشوقة . ولقد صدقت دعواهم وانجرت بمنطقهم الى تجربة كانت بالنسبة لي مأساة قاتلة ، لولا ان لقبتيك. وها انت تعود تتردد على مسمي احدي الفاظهم التي كانت فخاً وقتت فيه . هلي اني لا اكنك ان تلك الالفاظ المشوقة كانت احياناً تبدو لي في افواههم كالفاظ الفضيلة والشرف في افواه البغايا يحاولون ان ينسجن منها سترأ لقبح صنيعين . غير اني كلما شعرت هذا الشعور كنت اتهم نفسي ..

– وهكذا رضيت الالفاظ وحدها ان تكون سبيلك الى حقائق الاشياء والاشخاص ! على انك لو زدتي تصريحاً لأمكننا ان نجعل حديثنا اوفر نصيباً من الدقة ... وحدق مسمود في عينيه ملحاً عليه ان يصرح له بما ظل يلح اليه حتى الساعة تلميحاً من بعد .

فأطرق فائق ملياً ، ثم انطلق يحده كيف عمل موظفاً في شركة البترول وكيف قبل ان تسرق الشركة ، وبأي منطق اقنمه معاونه مصلح البشرية ، والآخر ممثل الركب الصاعد ، ثم كيف اتصل معاونه من السرقة بعد ان كشفت ، ثم كيف حاول تصفيره امام نفسه بتمتعه انه مثقف شأنه ان يقضي ايامه مرتبكاً في حل عقده النفسية السخيفة ..

فابتسم مسمود ابتسامة من يدرك الوجه في وجود الآلام والسذاجات والا كاذب والدناءات في هذا العالم . ثم قال لفائق :

– سيطول حديثنا فلا ينتهي الليلة . الا اني اقول لك اننا لا نسرقة الشركة ولا غيرها ، لا لأن الشركة على حق ، او لأننا نجعل انها تنهب

وَحْدِي مَعَ الْمُنْفَى

| الى امي الغاربة الى الأبد ... |

السحب تهرب ، أو تذوّبها ذكاه ،
وطحالب الصحراء ، والأعشاب ، تشمل بالضياء
ونداء أمي لا يزال يرتن في أذني : « تعال ...
» الشمس عادت والربيع
والزهر عاد مع الفراش ، مع الطيور ،
وصديقي طفلك كم يلاعبه أبوه بلا ملال
بين المزارع والحشائش ، والزهور
و « رجاء » يسأل أين أين أبي ؟ ألم يحن المآب ؟
وتلوح في عينيه بارقة الدموع ،
وأنا وصحبي المبعدون هناك ، مثلي يرقبون
أنا سنرجع رغم أغلال المنافي والجبال
كالشمس تسخر بالغيوم وبالضباب ،

★

ومدينة الأفيون ، لم تبرح على الأحلام تغفو والمنون ،
ونداء أمي لا يزال يرتن في أذني : تعال !

★

صالح جواد الطعمة جامعة هارفرد - الولايات المتحدة

وتطوفُ بي الذكرى اليك ، إليك والطفل الحزين ،
وسؤاله الملتاع : أين أبي ؟ أيرجعُ ؟ هل أراه ؟
- لم لا ؟ ستنعم بالهدايا ، بعد حين ، أو لقاء ؟
ويروح يرتقب المآب الحلو ، مشبوب الحنين ،
وأنا هنا خلف المغاوز ، والجبال ،
وحدي مع المنفى ورعيان القطيع ، وخفق آآ
والشمس تكره ان يغطيها السحاب ،
ويغيب عتّا تورها الذهبي ، والدفء المضاع
خلف الغيوم السود - لا كانت - ومخنتنا الضباب ،
وهناك قريننا الكثيب ، والحرائب ، والقبور
والليل ، والدفء المضاع ،
ومغاور الأفيون ، والمقهى ، واغنية تدور .

★

وأبي يقبّل طفلي الباكي ، ويحلم ان اعود ،
والأم كالشكلى ، تنثّ وقلبا عبر المغاوز والجبال
ونداؤها الواهي 'سدى' يعلو « تعال .. »
فأنا هنا خلف الصحارى والسدود ،
وحدي مع المنفى ، ورعيان القطيع ،

كان يجعل رسمه في جيبه والذي كان يظله شبح قائم بهمهم بهم بانشاب محاله
فيه . لقد تجدد فائق . حوّل خطاه عن المنحدر الذي كان يسرع فيه ، ووجه
وجهه الى الحياة . ولقد ازهرت شاعريته في هذا الجو المضيء الدافئ .
أما قصيدته لفتاة الجبران فانه أتم نظمها منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فوجهه
يلونه احمرار خفيف كلما طلب اليه ان ينشدها لأن الفتاة اصحت زوجته .
ولقد انثر جبهها ما هو خيب من قصيدته على رقبتها وجمالها . انثر فتين نامين
يشير اليهما فائق باعتزاز ويقول : جنديان من جنود الاشتراكية ...
الاشتراكية الحرة ، الشريفة بقايتها وبطريقها الى الغاية !

رئيف خوري

الوطن وتمص دم العال ، بل لأننا نحن اذا سرقنا الشركة عودنا انفسنا
الصوصية ، وبذلك بتنا لا نصلح لبناء نظام لا سرقة فيه ، قائم على العدالة
والحرية والسعادة والسلام للجميع . انك لا تستطيع ان تشيد بيتا نظيفا بمواد
قذرة ... ونحن لا نحاول ان نهزأ بالفضائل التي تنشب فيها الازمات نتيجة
للتفكير في ما يعد حقا وما يعد باطلا . الألة القبية والحيوان النقي وحدهما
قد اعفيا من مثل هذه الازمات ...

★

واليوم بعد هذا الوقت الطويل الذي انقضى على تلك المأساة ، اصبح
فائق هو غير فائق الذي عرفته خارات بيروت وكأنه هو ذلك الفتى الذي